

الزفاف

ماكسيم جوركي . ترجمة : مصطفى الرئيس

فى احدى المحطات الصغيرة بين روما وجنوا فتسح
الكيسارى باب الديوان وساعد رجلا مسنا بعين واحدة ..
على الدخول فقال بعض الموجودين فى صوت واحد وقد علت
وجوههم ابتسامة « عجوز جدا ! » لكن الرجل استدار فى
خفة يشكر مساعديه فى سرور وأدب بتلويح قبعته المتأكلة
بيده المعروقة وجعل يتفحص المقاعد بعين مأكرة ثم سأل
الجالسين « هل تسمحون لى ؟ » .

فقام بعض المسافرين وجلس الرجل وهو يزفر من
التعب وقد أراح يديه على ركبتيه وبرزت عظامهما وشفتاه
تفتر عن بسمة هادئة .

سأله صديقى : « أمسافر الى جهة بعيدة يا جدى ؟ » .
فأجابه العجوز بسرعة : « كلا ، بعد ثلاث محطات من
هنا ، فانى ذاهب لحضور زفاف حفيدى » .
ومرت بضع دقائق مع دقائق العجل المنتظمة بينما
العجوز يحكى لنا قصته يتأرجح من ناحية لآخرى كغصن
محطم فى يوم عاصف .

قال الرجل « انا ليجورى ، نحن الليجوريين قوم
اقوياء ، خذونى مثلا فانا عندي ثلاثة عشر ولدا وأربع بنات ،
ولا أعرف عدد أحفادى ، هذا هو الثانى منهم الذى يتزوج ،
يا للروعة » .

وبنظرة ملؤها الفخر أخذ يراقب الموجودين بعينه
الواحدة لا يستطيع اخفاء فرحته ثم انفجر ضاحكا . وأضاف
« انظروا كم أعطيت من الابناء لوطنى ، ثم كيف فقدت
عينى ؟ آه ان ذلك حدث من زمن بعيد ، كنت يومئذ صبيا ،
ولكننى كنت أعاون والدى فى حرث الارض وكانت الارض
تحتنا حجرية قاسية تحتاج الى كثير من العذر ، وعندما



تطايرت قطعة من الحجر من ضربة فأسه أصابت عيني اليمنى ، لا أتذكر مبلغ الألم الذى أحسسته ولكنى أثناء تناولى طعام الغذاء فى ذلك اليوم سقطت عيني . كان ذلك رهيبا ياسيدى فلصقوها لى ووضعوا عليها لزقة خبز دافى .. ولكن دون جدوى .. فقد ضاعت عيني » .

ثم أخذ يحك خده الباهت فى شدة وما لبثت ابتسامته الهادئة تغمر وجهه الطيب ثم استأنف حديثه « ولم يكن الأطباء موجودين بالكثرة التى هم عليها الآن ، كان الجهل متغشيا بين الناس ، ولكن ربما كانوا أكثر طيبة » .

واستطرد العجوز وفى عينه لمحة مأكرة تدل على الانتصار بينما بدا وجهه وقد عمق الزمن تجاعيده ونتاجاته وهالة من الشعر الرمادى تحيط رأسه : « عندما يعمر انسان مثلى فان باستطاعته الحكم على الناس ، أستمع معى فى هذا؟ »

ثم رفع اصبعه الملتوى فى جديده كأنما يقرع انسانا : « دعنى ياسيدى أحكى لكم شيئا عن الناس ، كنت فى الثالثة عشرة من عمري عندما مات والدى وكنت آنذاك انحف مما أنا عليه الآن ، ولكنى كنت ولدا ممتلئا بالحياة لا أعرف التعب ، عندما أزاول عملا ، ذلك كل ما ورثته عن أبى لأن المنزل وقطعة الارض الصغيرة قد بيعا لتغطية ديوننا . وهكذا عشت بعيني الواحدة ويدي الاثنتين أعمل فى أى مكان يتوفر فيه العمل ، ومرت الحياة قاسية ولكن الشباب لا يخشى المشقة ، أليس كذلك ؟ وعندما بلغت التاسعة عشرة قابلت الفتاة التى قدر لى أن أقع فى حبها ، كانت فقيرة مثلى ولكنها قوية البنية .. كانت أقوى منى تعيش مع أمها العجوز المريضة وتعمل مثلى فى أى مكان يصادفها ، لم تكن جميلة ولكنها طيبة تحمل فوق كتفيها رأسا صائب الفكر ، وصوتا عذبا أيضا ، يا لله كيف كانت تغنى .. تماما كمغنية محترفة ، فالصوت الجميل يساوى الكثير وقد تعودت - أنا نفسى - أن أجيد الغناء !! وفى أحد الايام سألتها : « هل نتزوج ؟ » .

فاجابتنى فى حزن « سيصبح ذلك عملا جنونيا يا عور ، فان كلينا لا يملك شيئا كيف نعيش ؟ » .

فقلت « هذه ارادة الله أن نكون فقراء ولكن ما الذى يحتاجه شابان يجمعهما الحب ؟ » انكم أنفسكم تعرفون ما يحتاجه العشاق الصغار ، لقد صممت وفزت بالجولة .

وردت ايدا أخيرا : « حسن ، من الجائز انك على حق اذا كانت السيدة العذراء تعيننا الآن وكل منا بعيد عن الآخر فكم يكون من الأيسر ان تعاوننا ونحن فى عيشة واحدة .

وعلى ذلك ذهبنا الى القسيس الذى قال : « هذا جنون ! ألا يوجد العدد الكافى من امسولين فى ليجوريا أيها التعساء ، انكم لعبة للشيطان قاوموا شره والا ستدفعون الكثير نظير ضعفكم » .

أخذ بعض الشبان يضحكون علينا والكبار يلوموننا ، لكن الشباب يصمم من مسلك الطريق الذى يختار .

وقرب يوم الزفاف ، ولم تكن فيه حالتنا المالية بأحسن من ذى قبل ، ولم تكن نعرف حتى أين نبيت ليلة زفافنا .

قالت ايدا : « دعنا نذهب الى الحقول ! لم لا ؟ فان السيدة العذراء تحنو على الناس أينما كانوا » .

وعلى ذلك قررنا أن نفترش الارض ونلتحف السماء ، وهنا تبدأ قصة أخرى ياسيدى أرجو أن تنتبهوا اليها لانها أحسن قصص حياتى . . . فى صباح مبكر لليوم السابق على الزفاف همس فى أذنى سيد عجوز كنت أقوم بخدمته لانه لا يحب الكلام فى هذه الموضوعات البسيطة ، يجب أن تنظف حظيرة الاغنام القديمة وتفرشها ببعض القش النظيف . . انه جاف فمند أكثر من عام لا توجد بالحظيرة أغنام ، ولكنك اذا أردت وايدا المعيشة فيها فعليكما تنظيفها جيدا . وبالفعل أصبح ذلك مسكننا . .

وبينما أنا مشغول فى تنظيف حظيرة الغنم . أغنى أثناء عملى رأيت الحوذى « كوستانزيو » واقفا الى جوار البوابة فقال : اذن ها هنا تعيشان انت وايدا ؟ ولكن أين السرير ؟ ان عندى سريرا زيادة بالمنزل تعال وخذه عندما تنتهى من التنظيف ، وأثناء ذهابى اليه صاحبت على « ماريا » صاحبة المحل ، سليفه اللسان : أتزوجون أيها الاغبياء ، بلا ملاءة أو مخدة ، انك لمجنون . . يا أعور ، لكن ابعت لى بعروسك . . .

فصرخ يرد عليها « اتورفيانو ، الاعرج - الذى طالما
عذبتة الحمى والروماتيزم وهو على عتبة دكانه : بل اسأليه
كم زجاجة خمر أعدها للضيوف ! آه كم يصبح الناس
مخبولين ؟ وهنا انحدرت دمعة على خد العجوز المجعد ، وقد
طوح برأسه الى الخلف وهو يبتسم بينما تفاحة آدم فى
رقبتة تتحرك فى عصبية ثم قال وقد هزه الضحك وأخذت
يداه تتحركان فى فرحة كفرحة الاطفال .. وآه ياسيدى ..
وفى صباح يوم الزفاف كان عندنا كل شىء يحتاجه بيتنا ..
تمثال مريم ، اطباق ، ملابس ، أثاث ...

كل شىء أقسم لك ! ضحكت أنا وايدا وبكىنا ثم ضحك
الجميع معنا ، لانه من غير المناسب البكاء يوم الزفاف . انه
ياسيدى لشىء بديع أن يستطيع المرء دعوة الناس اليه ،
وأجمل من ذلك أن تشعرهم انهم أعز أحبائك .. هؤلاء هم
الناس الذين تهمهم حياتك ولا يقامرون بسعادتك ، ثم كيف
كان الزفاف ؟ يا له من يوم . حضر جمع كبير للاحتفال ،
جاء كل منهم الى حظيرة الغنم التى أصبحت فى لحظة كقصر
كبير .. لقد أصبح لدينا كل شىء ، خمر وفاكهة ، لحم ..
وخبز .. وأخذ الجميع يأكلون ويمرحون ، ذلك يا سيدى
لانه ليس هناك أعظم سعادة من فعل الخير للناس صدقنى
انه ليس هناك أجمل ولا أبدع من ذلك ! وحضر القسيس
ايضا وخطب خطبة ممتازة قال هنا .. اثنان عملا من
أجلكم جميعا وقد بذلتم ما فى استطاعتكم كى تجعلوا هذا
اليوم أجمل أيام حياتهما ، وهذا ما ينبغى أن يكون لانهما
بذلا الكثير فى خدمتكم والعمل أجل بكثير من الذهب والفضة،
العمل دائما أهم بكثير من الاجر الذى تلقاه فى سبيله ! المال
يذهب لكن العمل يبقى .. هؤلاء الناس فقراء لكنهم سعداء
ان حياتهم شاقة ومع ذلك لا يشكون وسوف تظل معيشتهم
قاسية ولكنهم لن يتضجروا يوما لانكم سوف تساعدونهم
وقت احتياجهم .. هذا وقد مدحنى القسيس أنا وايدا
كثيرا ، كما اثنى على كل الحاضرين » .

وأخيرا نظر الينا الرجل ،عجوز بعينه الواحدة التى
عادت الى انكماشها مرة أخرى :

« وهكذا ياسيدى قصصت عليكم بعض الحكايات عن
الناس ، انها كانت رائعة أليس كذلك ؟! » .